المثل التاسع عشر

فأما الزبد فيذهب جُفاءً

المثل التاسع عشر:
فأما الزبد فيذهب جفاء

يقول الله تعالى:

{ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ } [الرعد: ١٧].

قال ابن كثير في تفسيره: اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى:{ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً } أي مطراً {فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا } أي أخذ كل وادٍ بحسبه، فهذا كبير وسع كثيراً من الماء، وهذا صغير وسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علما كثيراً، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها{فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا} أي فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زبد عالٍ عليه، هذا مثل، وقوله:{وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ} هذا هو المثل الثاني وهو ما يُسبك في النار من ذهب أو فضة {ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ } أي ليُجعل حلية أو نحاساً أو حديداً فيجعل متاعاً فإنه يعلوه زبد منه - وهو خبث الذهب أو الفضة أو الحديد والنحاس، كما يعلو ذلك السيل زبد منه{كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ}أي مثل الحق ومثل الباطل إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة مما يُسبك في النار، بل يذهب

ويضمحل، ولهذا قال:{فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ} أي لا يُنتفع به بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع منه شيء ولا يبقى إلا الماء وذلك الذهب ونحوه يُنتفع به، ولهذا قال:{وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ} قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكّها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله، وهو قوله:{فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ} وهو الشك.

{فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ} وهو اليقين، وكما تجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك، وقوله:

{وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ} فهو الذهب والفضة والنحاس والحديد فله خبث، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبتت فجُعل ذلك مثل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيئ يضمحل عن أهله كما يذهب هذا الزبد، وكذلك الهدى والحق جاءا من عند الله فمن عمل بالحق كان له وبقي كما بقي ما ينفع الناس في الأرض، وكذلك الحديد لا يمكن أن يُعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل في النار فتأكل خبثه ويخرج جيده فيُنتفع به، فكذلك يضمحل الباطل.

فإذا كان يوم القيامة وأقيم الناس وعرضت الأعمال فيزيغ الباطل ويهلك، وينتفع أهل الحق بالحق، وفي السُّنة المطهرة الصحيحة مثلٌ قريبٌ من هذا، فقد روى البخاري ومسلم في

صحيحيهما عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:«إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا، وأصابت طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني ونفع به فعلِم وعلّم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلتُ به».

{فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ} قال القرطبي: قال مجاهد: جموداً، وقال أبو عبيدة قال أبو عمرو بن العلاء: أجفأت القدر إذا غلت حتى ينصبّ زبدها وإذا جمد في أسفلها، والجفاء: ما أجفأه الوادي أي رمى به، وحكى أبو عبيدة أنه سمع رؤبة يقرأ{فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جفالاً} قال أبو عبيدة: يقال أجفلت القدر إذا قذفت بزبدها، وأجفلت الريح السحاب إذا قطعته،{وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ} قال مجاهد: هو الماء الخالص الصافي، وقيل: الماء وما خلص من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص، وهو أن المثلين ضربهما الله للحق في ثباته، والباطل في اضمحلاله، فالباطل وإن علا في بعض الأحوال فإنه يضمحل كاضمحلال الزبد والخبث، وقيل: المراد مثل ضربه الله للقرآن وما يدخل منه القلوب، فشبّه القرآن بالمطر لعموم خيره وبقاء نفعه، وشبّه القلوب بالأودية، يدخل فيها من القرآن مثل ما يدخل في الأودية بحسب سعتها وضيقها، قال ابن عباس{ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ} أي قرآناً، {فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا} قال: الأودية قلوب العباد، فالمعنى على هذا: أن الله سبحانه مثّل القرآن بالماء، ومثّل القلوب بالأودية، ومثّل المحكم بالصافي والمتشابه بالزبد، وقيل: الزبد مخايل

النفس وغوائل الشك، وأما حلية الذهب والفضة فمثل الأحوال النقية والأخلاق الزكية التي بها جمال الرجال وقوام صالح الأعمال، كما أن من الذهب والفضة زينة النساء وبهما قيمة الأشياء.

قال الشوكاني في فتح القدير: وهذان مثلان ضربهما الله سبحانه للحق والباطل يقول: إن الباطل وإن ظهر على الحق في بعض الأحوال وعلاه فإن الله سبحانه سيمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله كالزبد الذي يعلو الماء فيلقيه الماء ويضمحل، وكخبث هذه الأجسام - أي الذهب والفضة وغيرهما من المعادن - فإنه وإن علا عليها فإن الكير يقذفه ويدفعه، فهذا مثل الباطل، وأما الماء الذي ينفع الناس وينبت المراعي فيمكث في الأرض وكذلك الصفو من هذه الأجسام فإنه يبقى خالصاً لا شَوب فيه وهو مثل الحق.

قال الزمخشري في الكشّاف: نُكّرت الأودية لأن المطر لا يأتي إلا على طريق المناوبة بين البقاع فيسيل بعض أودية الأرض دون بعض، فإن قلت: فما معنى قوله:{بِقَدَرِهَا} قلت: بمقدارها الذي عرف الله أنه نافع غير ضارّ، لأنه ضرب المطر مثلاً للحق فوجب أن يكون مطراً خالصاً للنفع خالياً من المضرة ولا يكون كبعض الأمطار والسيول الجوارف.

{وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾}

[العنكبوت:٤٣].

المثل العشرون

مثلُ الجَنة

المثل العشرون:
مثـل الجنة

يقول الله تعالى:

{مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾} [الرعد: ٣٥].

هذا مثل قرّب الله به وصف الجنة وطبيعتها لعباده في الدنيا كي ترتسم في مخيلتهم صورة قريبة من حقيقتها، ويترسخ في إدراكهم شبه قريب من واقعيتها لأنها على الحقيقة لا يحيط بها خيالهم المحدود، ولا تدركها عقولهم القاصرة، لأن الجنة«فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» ففي هذا المثل يصف الله تعالى أنهار الجنة وثمارها وظلالها، فيقول:

{مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ} أي تسرح الأنهار في أرجائها وجوانبها حيث شاء أهلها يفجرونها تفجيرا لا ينضب ماؤها ولا يتغير طعمها ولا يتكدر صفوها ولا يزول نعيمها، فيها{وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾} [الواقعة: ٣٢ - ٣٣]، طعامها وشرابها دائمان بلا انقطاع ولا فناء، فيها ما لذ وطاب من صنوف الطعام والشراب{وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾} [الواقعة: ٢٠ - ٢١]،{وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾} [الواقعة: ٢٢ - ٢٣]، روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في صلاة الكسوف، وفيه قالوا:

يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا ثم رأيناك

تكعكعت - أي تراجعت -، فقال:«إني رأيت الجنة - أو أُريت الجنة - فتناولت منها عنقوداً، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا» وروى الحافظ أبو يعلى عن جابر ﷺ قال: بينما نحن في صلاة الظهر، إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا، ثم تناول شيئاً ليأخذه ثم تأخر، فلما قضى الصلاة قال له أُبي بن كعب: يا رسول الله صنعت اليوم في الصلاة شيئاً ما رأيناك كنت تصنعه، فقال:«إني عُرضت عليّ الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة، فتناولت منها قطفاً من عنب لآتيكم به فحيل بيني وبينه: ولو آتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه» هذا طرف يسير وجانب تقريبي بسيط عن طعام الجنة.

أما عن ظلال الجنة، فيصفها ربها جلّ وعلا فيقول:{وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾} [الإنسان: ١٤]، ويقول:{لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا} [النساء: ٥٧]، ويقول:{وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾} [الواقعة: ٣٠]، فظلها لا يزول ولا يتقلص، جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال:«إن في الجنة شجرةً يسير الراكب المُجِدّ الجواد المُضمَّر[1] السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها».

{تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ} ليشتاقوا إليها ويرغبوا فيها ويشمروا في طلبها،{وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ}.

اللهم أدخلنا الجنة بفضلك ورحمتك، وزحزحنا عن النار يا عزيزُ يا غفّار.

* * *

(١) المُضمّر: المُعدّ للسباق.

المثل الحادي والعشرون

كرمادٍ اشتدت به الريح

المثل الحادي والعشرون:
كرمادٍ اشتدت به الريح

يقول الله تعالى:

{ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ } [إبراهيم: ١٨].

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكافرين الذين أشركوا بالله وعبدوا معه غيره وكذّبوا رسله، وبَنَوْا أعمالهم على غير أساس من التوحيد والإيمان الخالص، فانهارت أعمالهم وكانت هباءً منثورا، وذهبت في مهب الريح، فيقول الله تعالى:{ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ} أي مثل أعمالهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى لأنهم كانوا يحسبون أنهم على شيء من الدين - فلم يجدوا شيئاً إلا كمن يطلب الرماد إذا اشتدت به الريح{فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ} أي في يوم ذي ريح شديدة عاصفة قوية،{لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ} أي لا يقدرون على نيل ثواب أعمالهم التي كسبوا في الدنيا، لأنها لم تكن خالصةً لوجه الله الكريم، ولم تكن صادرةً عن إيمان صحيح، ولذلك قال الله جلّ وعلا:

{ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ } [الفرقان: ٢٣]، {ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ } ففقدوا ثواب أعمالهم أحوج ما كانوا إليها{وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [آل عمران: ١١٧].

قال القرطبي: (والمعنى: أعمالهم محبطة غير مقبولة، فضرب الله هذه الآية مثلاً لأعمال الكفار في أنه يمحقها كما تمحق الريح

الشديدة الرماد في يوم عاصف، وإنما كان ذلك لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى.)

وقال البيضاوي في أنوار التنزيل: (شبّه صنائعهم من الصدقة وصلة الرحم وإغاثة الملهوف وعتق الرقاب ونحو ذلك من مكارمهم في حبوطها وذهابها هباءً منثورا لبنائها على غير أساس من معرفة الله تعالى والتوجه بها إليه، أو أعمالهم للأصنام برماد طيّرته الريح العاصف، فلا يرون له أثراً من الثواب،

{ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ} إشارة إلى ضلالهم مع حسبانهم أنهم محسنون، فإنه الغاية في البعد عن طريق الحق.

ومعنى هذا المثل ضربه الله تعالى في أمثال أخرى كثيرة في كتابه العظيم، حيث شبّه أعمال الكافرين تارةً {كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً} [النور: ٣٩]، وتارةً {كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ} [النور: ٤٠]، وتارة {كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا} [البقرة: ٢٦٤]، وتارة {كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ} [آل عمران: ١١٧]، إلى آخر هذه الأمثال التي سبق عرض بعضها وبيانه، وسوف أتناول البعض الآخر الذي لم يسبق شرحه بالبيان والتفصيل إن شاء الله تعالى.

{وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [إبراهيم: ٢٥].

المثل الثاني والعشرون

الكلمة الطيبة

المثل الثاني والعشرون:
الكلمة الطيبة

يقول الله جلّ وعلا:

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾} [إبراهيم: ٢٤ - ٢٥].

قال ابن عباس: قوله:{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً} هي شهادة أن لا إله إلا الله{كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ} في قلب المؤمن،{وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ} يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء.

قال القرطبي: لما ذكر الله تعالى مثل أعمال الكفار وأنها كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، ذكر مثل أقوال المؤمنين وأعمالهم، ثم فسّر ذلك المثل فقال:{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً} الكلمة الطيبة هي لا إله إلا الله، كما قال ابن عباس، وقال مجاهد وابن جريج: الكلمة الطيبة الإيمان، وقال العوفي والربيع بن أنس: هي المؤمن نفسه، وقال مجاهد وعكرمة: الشجرة الطيبة هي النخلة، شبّهه بالنخلة في المنبت، وشبّه ارتفاع عمله في السماء بارتفاع فروع النخلة، وثواب الله له بالثمر، ويجوز أن يكون المعنى: أصل النخلة ثابت في الأرض - أي جذورها راسخة - تشرب من الأرض وتسقيها السماء من فوقها، فهي زاكية نامية.

قال البغوي في معالم التنزيل:{أَصْلُهَا ثَابِتٌ} في الأرض {وَفَرْعُهَا} أعلاها{فِي السَّمَاءِ} وكذلك أصل هذه الكلمة راسخ في قلب المؤمن

بالمعرفة والتصديق فإذا تكلم بها عرجت فلا تحجب حتى تنتهي إلى الله عز وجل، قال الله تعالى:{إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: ١٠]، وروى البخاري من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ :«إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وهي مثل المؤمن خبروني ما هي،... ثم قال: هي النخلة»، وزاد فيه الحارث بن أسامة:«وهي النخلة لا تسقط لها أنملة وكذلك المؤمن لا تسقط له دعوة» فبين معنى الحديث والمماثلة.

قال القرطبي: وذكر الغزنوي عنه ﷺ قوله:«مثل المؤمن كالنخلة إن صاحبته نفعك، وإن جالسته نفعك، وإن شاورته نفعك، كالنخلة كل شيءٍ منها يُنتفع به»،{تُؤْتِيَ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ} أي تؤتي ثمارها كل وقت غدوةً وعشيًا وكل ساعة من ليل أو نهار صيفاً وشتاءً في أوقات مختلفة فيؤكل في جميع الأوقات، وكذلك المؤمن لا يخلو من الخير في الأوقات كلها، فالإيمان ثابت في قلب المؤمن، وعمله وقوله وتسبيحه عالٍ مرتفع في السماء ارتفاع فروع النخلة، وما يكسب من بركة الإيمان وثوابه كما ينال من ثمرة النخلة في أوقات السنة كلها من الرطب والبُسر والبلح والزهو والتمر والطلع - أي على اختلاف أشكاله وألوانه.

{بِإِذْنِ رَبِّهَا} أي بإرادته ومشيئته وتيسير خالقها وعلمه سبحانه وتكوينه.

وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:«مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تميّله، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز - أي الصنوبر - لا تهتز حتى تستحصد» أي إن

المؤمن ثابت راسخ الإيمان مهما عصفت به المحن والابتلاءات فهو صابر محتسب لا يحيد عن طريق الإيمان كالزرع أو الأشجار الثابتة الراسخة تتمايل مع الريح يميناً ويساراً فلا تسقط ولا تنقصف، أما المنافق فمثله:«كمثل شجرة الصنوبر إذا عصفت بها الريح فإنها لا تهتز ولا تتمايل ولكنها تنقصف وتجتث من فوق الأرض».

{مَا لَهَا مِن قَرَارٍ} [إبراهيم: ٢٦]، كما سيأتي في المثل التالي.

{وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [إبراهيم: ٢٥].

أي يتفكرون ويتدبرون أحوال المبدأ والمعاد وبدائع صنعه سبحانه الدالة على وحدانيته وعظمته وطلاقة قدرته، وفي ضرب الأمثال زيادة تذكير وتفهيم وتصوير للمعاني.

اللهم ثبتنا على الكلمة الطيبة وآتنا ثمارها كل حين بإذنك يانعةً طيبةً واحشرنا مع أهلها الطيبين غير مبدلين آمين.

* * *

المثل الثالث والعشرون

الكلمة الخبيثة

المثل الثالث والعشرون:
الكلمة الخبيثة

يقول الله تعالى:

{ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾} [إبراهيم: ٢٦].

هذا مثل كفر الكافر لا أصل له ولا ثبات، كمثل شجرة الحنظل، لا تثمر إلا نكدا، ولا طعم لها إلا المرارة التي لا تطاق ولا تُستساغ حتى ضُرب بها المثل في ذلك.

قال القرطبي: الكلمة الخبيثة كلمة الكفر. وقيل: الكافر نفسه. والشجرة الخبيثة شجرة الحنظل كما في حديث أنس، وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما، وعن ابن عباس أيضا: أنها شجرة لم تخلق على الأرض. وقيل: هي شجرة الثوم؛ عن ابن عباس أيضا. وقيل: الكمأة أو الطحلبة. وقيل: الكشوث، وهي شجرة لا ورق لها ولا عروق في الأرض؛ قال الشاعر:

وهم كشوث فلا أصل ولا ورقُ

{ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ} اقتلعت من أصلها؛ قاله ابن عباس؛ ومنه قول لقيط:

والجلاء الـذي تجتـث أصـلكم ::: فمن رأى مثل ذا يوما ومن سمعا

وقال المؤرج: أخذت جثتها وهي نفسها، والجثة شخص الإنسان قاعدا أو قائما. وجثّه قلعه، واجتثه اقتلعه من فوق الأرض؛ أي ليس لها أصل راسخ يشرب بعروقه من الأرض.{مَا لَهَا مِن قَرَارٍ} أي من

أصل في الأرض. وقيل: من ثبات؛ فكذلك الكافر لا حجة له ولا ثبات ولا خير فيه، وما يصعد له قول طيب ولا عمل صالح.

قال الزمخشري في الكشاف: والكلمة الخبيثة: كلمة الشرك. وقيل: كل كلمة قبيحة. وأما الشجرة الخبيثة فكل شجرة لا يطيب ثمرها كشجرة الحنظل والكشوث ونحو ذلك. وقوله: {ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ} في مقابلة قوله:{أَصْلُهَا ثَابِتٌ} ومعنى:{ٱجْتُثَّتْ} استؤصلت وحقيقة الاجتثاث أخذ الجثة كلها{مَا لَهَا مِن قَرَارٍ} أي استقرار، وعن قتادة أنه قيل لبعض العلماء: ما تقول في كلمة خبيثة فقال: ما أعلم لها في الأرض مستقراً ولا في السماء مصعداً إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافي بها القيامة.

وقال الشوكاني في فتح القدير:

{ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ} يقول الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر ولا برهان ولا يقبل الله مع الشرك عملا.

قال جلال الدين السيوطي في الدر المنثور:

وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة ﷺ قال: اعقلوا من الله الأمثال.

{وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾} [العنكبوت: ٤٣].

***

المثل الرابع والعشرون

عبداً مملوكاً

المثل الرابع والعشرون:
عبدا مملوكا

يقول الله جلّ وعلا:

{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُونَ ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾} [النحل: ٧٥].

قال ابن كثير في تفسيره:

قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن، وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير، فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر، والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سراً وجهراً هو المؤمن، وقال مجاهد: هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى، فهل يستوي هذا وهذا؟ ولكان الفرق بينهما ظاهراً واضحاً بيناً لا يجهله إلا كل غبي قال الله تعالى:{الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ }.

وقال القرطبي:

قوله تعالى{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا} نبّه تعالى على ضلالة المشركين، وهومنتظم بما قبله من ذكر نعم الله عليهم وعدم مثل ذلك من آلهتهم. {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا} أي بين شبها؛ ثم ذكر ذلك فقال{عَبْدًا مَمْلُوكًا} أي كما لا يستوي عندكم عبد مملوك لا يقدر من أمره على شيء ورجل حر قد رُزق رزقا حسنا فكذلك أنا وهذه الأصنام. فالذي هو مثال في هذه الآية هو عبد بهذه الصفة مملوك لا يقدر على شيء من المال ولا من أمر نفسه، وإنما هو مسخر بإرادة سيده.

وقال قتادة: هذا المثل للمؤمن والكافر؛ فذهب قتادة إلى أن العبد

المملوك هو الكافر؛ لأنه لا ينتفع في الآخرة بشيء من عبادته، إلا أنّ معنى{وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا} : المؤمن. والأول عليه الجمهور من أهل التأويل. قال الأصم: المراد بالعبد المملوك الذي ربما يكون أشد من مولاه أسرا وأنضر وجها، وهو لسيده ذليل لا يقدر إلا على ما أذن له فيه؛ فقال الله تعالى ضربا للمثال. أي فإذا كان هذا شأنكم وشأن عبيدكم فكيف جعلتم أحجارا مَواتا شركاء لله تعالى في خلقه وعبادته، وهي لا تعقل ولا تسمع؟!

فهم المسلمون من هذه الآية ومما قبلها نقصان رتبة العبد عن الحر في الملك، وأنه لا يملك شيئا وإن ملك. قال أهل العراق: الرق ينافي الملك، فلا يملك شيئا البتة بحال، وهو قول الشافعي في الجديد، وبه قال الحسن وابن سيرين. ومنهم من قال: يملك إلا أنه ناقص الملك، لأن لسيده أن ينتزعه منه أي وقت شاء، وهو قول مالك ومن اتبعه، وبه قال الشافعي في القديم. وهو قول أهل الظاهر؛ ولهذا قال أصحابنا: لا تجب عليه عبادات الأموال من زكاة وكفارات، ولا من عبادات الأبدان ما يقطعه عن خدمة سيده كالحج والجهاد وغير ذلك. وروي عن ابن عباس أن عبدا له طلق امرأته طلقتين فأمره أن يرتجعها بملك اليمين؛ فهذا دليل على أنه يملك ما بيده ويفعل فيه ما يفعل المالك في ملكه ما لم ينتزعه سيده. والله أعلم.

وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن طلاق العبد بيد سيده، وعلى أن بيع الأمة طلاقها؛ معولا على قوله تعالى{لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ}. قال: فظاهره يفيد أنه لا يقدر على شيء أصلا، لا على الملك ولا على غيره فهو على عمومه، إلا أن يدل دليل على خلافه. وقيما ذكرناه عن ابن عمر وابن عباس ما يدل على التخصيص. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى{وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا} هو المؤمن، يطيع الله في نفسه وماله. والكافر ما لم ينفق في الطاعة صار كالعبد الذي لا يملك شيئا.{هَلْ يَسْتَوُونَ} أي لا يستوون، ولم يقل يستويان لمكان (من) لأنه اسم مبهم يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث. وقيل{إِن عَبْدًا مَّمْلُوكًا}،{وَمَن رَّزَقْنَاهُ} أريد بهما الشيوع في الجنس {الْحَمْدُ لِلَّهِ} أي هو مستحق للحمد دون ما يعبدون من دونه؛ إذ لا نعمة للأصنام عليهم من يد ولا معروف فتحمد عليه، إنما الحمد الكامل لله؛ لأنه المنعم الخالق.{بَلْ أَكْثَرُهُمْ} أي أكثر المشركين. {لَا يَعْلَمُونَ} أنّ الحمد لي، وجميع النعمة مني. وذكر الأكثر وهو يريد الجميع، فهو خاص أريد به التعميم. وقيل: أي بل أكثر الخلق لا يعلمون، وذلك أن أكثرهم المشركون.

وقال البيضاوي في أنوار التنزيل وأسرار التأويل:

مثل ما يشرك به بالمملوك العاجز عن التصرف رأسا ومثل نفسه بالحر المالك الذي رزقه الله مالا كثيرا فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف يشاء واحتج بامتناع الاشتراك والتسوية بينهما مع تشاركهما في الجنسية والمخلوقية على امتناع التسوية بين الأصنام التي هي أعجز المخلوقات وبين الله الغني القادر على الإطلاق. وقيل هو تمثيل للكافر المخذول والمؤمن الموفق وتقييد العبد بالمملوكية للتمييز عن الحر فإنه أيضا عبد الله وبسلب القدرة للتمييز عن المكاتب والمأذون له وجعله قسيما للمالك المتصرف يدل على أن المملوك لا يملك والأظهر أن(مَن) نكرة موصوفة ليطابق (عبدا) وجمع الضمير في (يستوون) لأنه للجنسين فإن المعنى هل يستوي الأحرار والعبيد (الحمد لله) كل الحمد له لا يستحقه غيره فضلا عن

العبادة لأنه مولى النعم كلها (بل أكثرهم لا يعلمون) فيضيفون نعمه إلى غيره ولايعبدونه لأجلها.

وقال الزمخشري في الكشاف:

ثم علمهم - أي بعد أن نهاهم عن أن يضربوا له سبحانه الأمثال - كيف تضرب الأمثال فقال: مثلكم في إشراككم بالله الأوثان: مثل من سوّى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين حر مالك قد رزقه الله مالاً فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف شاء. فإن قلت: لمَ قال{مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ} وكل عبد مملوك وغير قادر على التصرف قلت: أما ذكر المملوك فليميز من الحر لأن اسم العبد يقع عليهما جميعاً لأنهما من عباد الله. وأما{لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ} فليجعل غير مكاتب ولا مأذون له لأنهما يقدران على التصرف. واختلفوا في العبد هل يصح له ملك؟ والمذهب الظاهر أنه يصح له. فإن قلت: (من) في قوله{وَمَن رَّزَقْنَٰهُ} ما هي قلت: الظاهر أنها موصوفة كأنه قيل وحراً رزقناه ليطابق عبداً.

{ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾} [محمد: ٣].

* * *

المثل الخامس والعشرون

أبكمُ لا يقدر على شيء

المثل الخامس والعشرون:
أبكم لا يقدر على شيء

يقول الله تبارك وتعالى:

{ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ } [النحل: ٧٦].

قال مجاهد: وهذا أيضاً المراد به الوثن والحق تعالى، يعني أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء ولا يقدر على شيء بالكلية، فلا مقال ولا فعال، وهو مع هذا{كَلٌّ} أي عيال وكلفة على مولاه{أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ} أي يبعثه{لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ} ولا ينجح مسعاه {هَلْ يَسْتَوِى} من هذه صفاته{وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ} أي بالقسط فمقاله حق وفعاله مستقيمة{وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ}، وقال ابن عباس: هو مثل للكافر والمؤمن أيضاً كما تقدم.

قوله تعالى{ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ} هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لنفسه وللوثن، فالأبكم الذي لا يقدر على شيء هو الوثن، والذي يأمر بالعدل هو الله تعالى؛ قاله قتادة وغيره. وقال ابن عباس: الأبكم عبد كان لعثمان ﷺ، وكان يعرض عليه الإسلام فيأبى،{يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ} عثمان. وعنه أيضا أنه مثل لأبي بكر الصديق ومولى له كافر. وقيل: الأبكم أبو جهل، والذي يأمر بالعدل عمار بن ياسر.

وقال القرطبي: وقال مقاتل: نزلت في هشام بن عمرو بن

الحارث، كان كافرا قليل الخير يعادي النبي ﷺ وقيل: إن الأبكم هو الكافر، والذي يأمر بالعدل هو المؤمن جملة بجملة؛ روى عن ابن عباس وهو حسن لأنه يعم. والأبكم الذي لا نطق له. وقيل الذي لا يعقل. وقيل الذي لا يسمع ولا يبصر. وفي التفسير إن الأبكم ههنا الوثن. بيّن أنه لا قدرة له ولا أمر، وأن غيره ينقله وينحته فهو كلّ عليه. والله الآمر بالعدل، الغالب على كل شيء.{وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ} أي ثقل على وليه وقرابته، ووبال على صاحبه، والكلّ أيضا الذي لا ولد له ولا والد. والكل العيال،{أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ} قرأ الجمهور {يُوَجِّههُّ} وهو خط المصحف؛ أي أينما يرسله صاحبه لا يأت بخير، لأنه لا يعرف ولا يفهم ما يقال له ولا يفهم عنه. وقرأ يحيى بن وثاب{أَيْنَمَا يُوَجَّههُّ} على الفعل المجهول. وروي عن ابن مسعود أيضا (توجه) على الخطاب.{هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} أي هل يستوي هذا الأبكم ومن يأمر بالعدل وهو على الصراط المستقيم؟! وقال الشوكاني في فتح القدير:

{ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا} أي مثلا آخر أوضح مما قبله وأظهر منه، ثم قال: وفي هذا بيان لعدم قدرته على إقامة مصالح نفسه بعد ذكر عدم قدرته على شيء مطلقا ثم وصفه بصفة رابعة فقال:{أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ} أى إذا وجهه إلى أي جهة لا يأتي بخير قط لأنه لا يفهم ولا يعقل ما يقال له ولا يمكنه أن يقول شيئاً.

{هَلْ يَسْتَوِي هُوَ} في نفسه مع هذه الأوصاف التي اتصف بها.

{وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ} أى يأمر الناس بالعدل مع كونه في نفسه ينطق بما يريد النطق به ويفهم ويقدر على التصرف في الأشياء{وَهُوَ} في

نفسه{عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ} على دين قويم وسيرة صالحة ليس فيه ميل إلى أحد جانبي الإفراط والتفريط قابل أوصاف الأول بهذين الوصفين المذكورين للآخر لأن حاصل أوصاف الأول عدم استحقاقه لشئ وحاصل وصفي هذا أنه مستحق أكمل استحقاق والمقصود الاستدلال بعدم تساوي هذين المذكورين على امتناع التساوي بينه سبحانه وبين ما يجعلونه شريكا له، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيرا.

وقال الزمخشري في الكشاف: وهذا مثل ثان ضربه الله لنفسه ولما يفيض على عباده ويشملهم من آثار رحمته وألطافه ونعمه الدينية والدنيوية وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع.

{وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾} [الفرقان: ٥٠].

***

المثل السادس والعشرون

نقضت غزلها

المثل السادس والعشرون:
نقضت غزلها

يقول الله عز وجل:

{ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ } [النحل: ٩٢].

قال القرطبي:

قوله تعالى{ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا } النقض والنكث واحد، والاسم النكث والنقض، والجمع الأنكاث. فشبهت هذه الآية الذي يحلف ويعاهد ويبرم عهده ثم ينقضه بالمرأة تغزل غزلها وتفتله محكما ثم تحله. ويروى أن امرأة حمقاء كانت بمكة تسمى ريطة بنت عمرو بن كعب كانت تفعل ذلك، فبها وقع التشبيه؛ قال الفرّاء، وحكاه عبدالله بن كثير والسدي ولم يسميا المرأة، وقال مجاهد وقتادة: وذلك ضرب مثل، لا على امرأة معينة. و{أَنكَاثًا} نصب على الحال. والدخل: الدغل والخديعة والغش. قال أبو عبيدة: كل أمر لم يكن صحيحا فهو دخل.{أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ } قال المفسرون: نزلت هذه الآية في العرب الذين كانت القبيلة منهم إذا حالفت أخرى، ثم جاءت إحداهما قبيلة كثيرة قوية فداخلتها غدرت الأولى ونقضت عهدها ورجعت إلى هذه الكبرى - قاله مجاهد - فقال الله تعالى: لا تنقضوا العهود من أجل أن طائفة أكثر من طائفة أخرى أو أكثر أموالا فتنقضون أيمانكم إذا رأيتم

الكثرة والسعة في الدنيا لأعدائكم المشركين. والمقصود النهي عن العود إلى الكفر بسبب كثرة الكفار وكثرة أموالهم، وقال الفراء: المعنى لا تغدروا بقوم لقلتهم وكثرتكم أو لقلتكم وكثرتهم، وقد عززتموهم بالأيمان.{أَرْبَىٰ} أي أكثر؛ من ربا الشيء يربو إذا كثر. والضمير في (به) يحتمل أن يعود على الوفاء الذي أمر الله به. ويحتمل أن يعود على الرباء؛ أي أن الله تعالى ابتلى عباده بالتحاسد وطلب بعضهم الظهور على بعض، واختبرهم بذلك من يجاهد نفسه فيخالفها ممن يتبعها ويعمل بمقتضى هواها؛ وهو معنى قوله{إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} من البعث وغيره.

وقال ابن كثير: وقوله:{وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا} قال عبد الله بن كثير والسدي هذه امرأة خرقاء كانت بمكة كلما غزلت شيئا نقضته بعد ابرامه وقال مجاهد وقتادة وابن زيد هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده وهذا القول أرجح وأظهر سواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا وقوله:{أَنكَٰثًا} يحتمل أن يكون اسم مصدر نقضت غزلها أنكاثا أي أنقاضا ويحتمل أن يكون بدلا عن خبر كان أي تكونوا أنكاثا جمع نكث من ناكث ولهذا قال بعده{تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ} أي خديعة ومكرا.

{أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ} أي تحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم فنهى الله عن ذلك ليتنبه بالأدنى على الأعلى إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى، وقد كان بين معاوية وملك الروم أمد فسار إليهم في آخر الأجل حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم أغار عليهم وهم غافلون لا يشعرون فقال له عمرو بن عنبسة

الله أكبر يا معاوية وفاء لا غدر سمعت رسول الله ﷺ يقول من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلن عقدة حتى ينقضي أمدها فرجع معاوية ﷺ بالجيش.

قال ابن عباس{أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ} أي أكثر وقال مجاهد كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز فنهوا عن ذلك وقال الضحاك وقتادة وابن زيد نحوه وقوله:{إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ} قال سعيد بن جبير يعني بالكثرة رواه ابن أبي حاتم وقال ابن جرير أي بأمره إياكم بالوفاء بالعهد{وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} فيجازى كل عامل بعمله من خير وشر، وقال الزمخشري في الكشاف عن المرأة الخرقاء التي كانت تنقض غزلها: فكانت تغزل هي وجواريها من الغداة إلى الظهر ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن، يعني: ولا تنقضوا أيمانكم متخذيها دخلاً ودغلاً{بَيْنَكُمْ} أي مفسدة،{أَن تَكُونَ أُمَّةٌ} بسبب أن تكون أمة يعني جماعة قريش{هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ} هي أزيد عدداً وأوفر مالاً من أمة من جماعة المؤمنين{إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ} الضمير لقوله: أن تكون أمة لأنه في معنى المصدر أي: إنما يختبركم بكونهم أربى لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما عقدتم على أنفسكم ووكدتم من أيمان البيعة لرسول ﷺ أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقوتهم وقلة المؤمنين وفقرهم وضعفهم{وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ} إنذار وتحذير من مخالفة ملة الإسلام، وهو مثل عام في الأمر بالوفاء بالعهد وعدم نقض الأيمان والميثاق تحت أي مبرر من المبررات.

{وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر: ٢١].

***

المثل السابع والعشرون

قريةً كانت آمنة مطمئنة

المثل السابع والعشرون:
قرية كانت آمنة مطمئنة

يقول الله جل وعلا:

{وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾} [النحل: ١١٢ - ١١٣].

قال القرطبي:

وكان رسول الله ﷺ دعا على مشركي قريش وقال:«اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف». فابتلوا بالقحط حتى أكلوا العظام، ووجه إليهم رسول الله ﷺ طعاما ففرق فيهم.{كَانَتْ ءَامِنَةً} لا يُهاج أهلها.{يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ} من البر والبحر؛ نظيره{يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ} [القصص: ٥٧]، {فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ} الأنعم: جمع النعمة؛ كالأشُد جمع الشدة. وقيل: جمع نعمى؛ مثل بؤسى وأبؤس. وهذا الكفران تكذيب بمحمد ﷺ{فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ} أي أذاق أهلها.{لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ} سماه لباسا لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس.{بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ} أي من الكفر والمعاصي، وأذاقها الخوف. وهو بعث النبي ﷺ سراياه التي كانت تطيف بهم. وأصل الذوق بالفم ثم يستعار فيوضع موضع الابتلاء. وضرب مكة مثلا لغيرها من البلاد؛ أي أنها مع جوار بيت الله وعمارة مسجده، لمّا كفر أهلها أصابهم القحط فكيف بغيرها من القرى؟ وقد قيل: إنها المدينة، آمنت

برسول الله ﷺ ثم كفرت بأنعم الله لقتل عثمان بن عفان، وما حدث بها بعد رسول الله ﷺ من الفتن. وهذا قول عائشة وحفصة زوجي النبي ﷺ وقيل: إنه مثل مضروب بأي قرية كانت على هذه الصفة من سائر القرى.

وقال ابن كثير:

مثل أريد به أهل مكة فإنها آمنة مطمئنة مستقرة يُتخطف الناس من حولها ومن دخلها كان آمنا لا يخاف كما قال تعالى:{ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا} [القصص: ٥٧] و هكذا قال ههنا.

{يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا} أي هنيئا سهلا{مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ} أي جحدت آلاء الله عليها وأعظمها بعثة محمد ﷺ إليهم كما قال تعالى:{ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ٢٨ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ٢٩} [إبراهيم: ٢٨ - ٢٩] ولهذا بدلهم الله بحاليهم الأولين خلافهما فقال:{فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ} أي ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبى إليهم ثمرات كل شيء ويأتيها رزقها رغدا من كل مكان وذلك أنهم استعصوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافه فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم فأكلوا العلهز وهو وبر البعير بدمه إذا نحروه وقوله: {وَٱلۡخَوۡفِ} وذلك أنهم بُدلوا خوفا من رسول الله ﷺ وأصابهم حين هاجروا إلى المدينة من سطوته وسراياه وجيوشه وجعل كل مالهم في دمار وسفال حتى فتحها الله على رسوله ﷺ وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذي بعثه الله فيهم، وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم فخافوا بعد الأمن وجاعوا بعد الرغد فبدل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمنا ورزقهم بعد العيلة وجعلهم أمراء الناس

وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم وهذا الذي قلناه من أن هذا المثل ضرب لأهل مكة قاله العوفي عن ابن عباس وإليه ذهب مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وحكاه مالك عن الزهري رحمهم الله وقال ابن جرير عن سليم بن نمير:

صدرنا من الحج مع حفصة زوج النبي ﷺ وعثمان ﷺ محصور بالمدينة فكانت تسأل عنه ما فعل حتى رأت راكبين فأرسلت إليهما تسألهما فقالا قتل فقالت حفصة والذي نفسي بيده إنها القرية تعني المدينة التي قال الله تعالى:{وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ} قال ابن شريح وأخبرني عبيد الله بن المغيرة عمن حدثه أنه كان يقول: إنها المدينة.

ثم قال القرطبي:

وقوله تعالى{وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ} هذا يدل على أنها مكة. وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة.{فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ} وهو الجوع الذي وقع بمكة. وقيل: الشدائد والجوع منها.

وهذا المثل وإن نزل في أهل مكة، إلا أنه يُضرب لكل قرية أو دولة أو مملكة كانت تعيش في أمن ورخاء ورغد من العيش فكفرت بأنعم الله وبدّلت نعمة الله كفراً فأذاقها الله لباس الجوع والخوف وأحلّها دار البوار بكفرهم وجحودهم وإفسادهم في الأرض؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

{وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾} [القصص: ٥٩].

***